معلمون رواد

جبر عبد الفتاح

قد تتأتى الفكرة الأولى ببساطتها بفكرة أخرى منبثقة أو تكميلية أو مخالفة، لكنها في المجمل تعتبر تطويرية، لذلك يدور النقاش حول ريادة الرواد في مجال التربية والتعليم، وكيف يمكن إطلاق الصفة على أولئك؟ ولماذا دون غيرهم ممن عاصروهم أو سبقوهم أو من تبعوهم في هذا المجال؟ يمكن للإنسان أن يكون رائدا بشخصه كفرد من خلال تميزه عن أقرانه في المجال نفسه، أو يتميز عن غيره في مجالا مختلفة، أو يتميز بكونه رائدا ممثلا لرواد عديدين في مجاله أو في المجلا المختلفة. فنحن هنا إن أطلقنا صفة الريادة على من أسعفونا بلقائهم وحوارهم وسماع رؤياهم في مجال التربية والتعليم، يأتي من خلال كونهم أولا روادا ببعدهم الشخصي وممثلين لمن هم رواد في مجالهم، وكذلك لهم الريادة في المجالا المختلفة. من هنا وقبل أن نعلن لمن الريادة في مجال ما، علينا أن ندرك واقعه المباشر، وواقعه في المجال الذي تميز به والواقع العام الذي يعيشه، ووفقا لذلك علينا فهم كيف أن تتعلم في فلسطين في ظروف غير طبيعية وتحت إدارة غير وطنية بل غريبة، وأيضا كيف تتم العملية التربوية في هذا الواقع، وكيف يكون ذلك أيضا تحت إدارا مختلفة للتعليم الفلسطيني.

الريادة لدي في هذا المجال قد تكون أداء الدور أولا في ظرف غير ملائم، وفي بيئة تتحول وتتغير وقد لا تفي بغرض الدور، وفي سياق قد لا يؤدي لصاحب الدور تحقيق هدفه وأهداف شعبه ومجتمعه، لذلك فهو من وجهة نظري تميز عن أقرانه أولا، وتميز عن غيره ممن هم في واقع طبيعي، وتميز بشخصه عن زملائه ولكنه يمثلهم الآن كونهم جميعا رواداً، وإلا لما تميز التعليم في فلسطين على الرغم من كل المعوقا لذلك.

الرؤية الثانية للأستاذ جبر عبد الفتاح:

في هذا العدد سنتناول ما خبرته تجربة الأستاذ المربي جبر حسن عبد الفتاح جبارين، المولود في أم الفحم عام ١٩٢٠ والحاصل على شهادة الكلية العربية في القدس عام ١٩٣٩ (المتريكيولشن).

تشير المصادر إلى أن أم الفحم والتي تبعت قضاء جنين في حينه إلى وجود مدرسة ابتدائية فيها، حيث اعتبر هذه المدرسة من مدارس قرى جنين الابتدائية الكاملة بجانب كل من عرابة ويعبد وقباطية واليامون وسيلة الحارثية، بخلاف غيرها من قرى جنين التي توفرت فيها مدارس ابتدائية ولم تكن مكتملة. وتوفر في مدينة جنين في الفترة نفسها مدرستان تابعتان لدائرة المعارف في العام ١٩٤٤/ ١٩٤٥، أصبحت مدرسة البنين ثانوية كاملة في العام ١٩٤٧/ ١٩٤٨، وقد تلقى ضيفنا في هذا العدد تعليمه الابتدائي في أم الفحم ومن ثم في مدينة جنين ومن ثم في الكلية العربية في القدس والتي تخرج منها في العام ١٩٣٩، وهي السنة نفسها التي أضيف فيها على شهادة الدراسة الثانوية (المتريكيولشن) في الكلية صفان جديدان هما الصفان الخامس والسادس كما يذكر مصطفى مراد الدباغ في الموسوعة الفلسطينية.

وبصدد المسيرة التعليمية للأستاذ جبر نجد أنفسنا أمام شخصية متميزة في صفوف جيله، حيث تم قبوله في الكلية العربية عبر منحة له وفق الإجراءا الخاصة بذلك، التي كانت تحدد أن لكل منطقة من مناطق فلسطين والأردن منحة واحدة للمتفوق فيها، ويعتبر أيضا الأستاذ ثالث طالب من أم الفحم يلتحق بالكلية بعد كل من فريد السعد الذي أصبح رجل مال وأعمال ووزيراً في الأردن والشخص الثاني احمد قاسم قحاوش الذي اصبح فيما بعد أستاذا في الكلية وخبيرا في الزراعة في كل من سوريا والمغرب. ويشير الدكتور فوزي عبد العزيز في ورقته البحثية (دار المعلمين والكلية العربية في القدس ١٩١٩-١٩٤٨: دراسة في المصادر الأولية) إلى ان «طلاب الكلية العربية بعامة هم نخبة الطلاب في فلسطين، أي ان مستواهم العلمي كان مرتفعا».[١]

لقد امتد حياته العملية في مجال التربية والتعليم منذ أن تخرج من الكلية العربية عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٧٨، أي ٣٩ سنة في خدمة هذا القطاع بالغ الأهمية في فلسطين، وقد عمل معلما في أم الفحم في بداية مشواره ثم عمل مديرا لمدرسة السيلة الحارثية وبرقة ثم معلما في ثانوية جنين وثانوية يعبد، وأصبح مديرا لمدرسة حطين

في جنين ومديرا لمدرسة يعبد الثانوية، وثانوية حيفا في المدينة. وشغل أيضا مناصب في مديرية التربية والتعليم كمساعد لمدير التربية ومراقب الموجهين، ثم انتدب إلى السعودية وعاد إلى وطنه بعد نكسة ١٩٦٧ وبقي في سلك التربية والتعليم حتى ١٩٧٨، فهو إذن عاصر مراحل ثلاثاً من التعليم الفلسطيني منذ الانتداب حتى الاحتلال الصهيوني، ويراقب التعليم اليوم حيث له في ذلك رأي ووجهة نظر.

كانت للتعليم في فلسطين أهمية قصوى في السنوا التي أعقبت احتلالها من قبل بريطانيا، وعلى الرغم من السياسة البريطانية التعليمية التي أخضعت إدارة المعارف العربية لها مباشرة بعكس ما فعلت لأدارة التعليم الصهيوني الذي منح استقلالية كاملة، فالعرب في فلسطين اهتموا بتعليم أنفسهم وأبنائهم وإن تكفلوا بذلك على حسابهم المباشر، إن كان ذلك بالتكفل بالمباني المدرسية أو رواتب المعلمين خاصة في القرى. ويذكر الأستاذ جبر أن الشعور بالخجل بين الفلاحين بدأ يحتل حيزا في حال عدم معرفتهم القراءة لهم أو عدم إرسال أبنائهم للدراسة، ذلك بجانب ما أد إليه عملية التعليم من خلق جوانب تنافسية بين شرائح مجتمعية مختلفة، خاصة على ضوء التوسع في التعليم والذي وصل إلى الريف الفلسطيني كما هي المدن. والتنافس لم يقتصر بين الشرائح المختلفة وغير المتشابهة، بل أيضا داخل الشريحة الواحدة مرتبطا ذلك بالتنافس المجتمعي بمختلف أشكاله، خاصة على ضوء الرغبة البريطانية من وراء التعليم في فلسطين الساعية لتوفير نخبة متعلمة مساندة لها في إدارة البلد وتشكيل الدوائر الإدارية المختلفة لتعزز من خلالها سلطتها وسيطرتها.

وبما ان التعليم في فلسطين لم يقتصر على المدارس الحكومية، بل وجد العديد من المدارس الخاصة للمسيحيين والمسلمين وغيرها من المدارس التي تكفل بها الأهالي، فلم يقتصر التعليم على الشرائح العليا في المجتمع بل حظيت به شرائح اجتماعية دنيا تحملت عبئا في التعليم نفسه بعد أن أوصد أبواب العمل العام المجتمعي والسياسي أمامها، ولهذا أمثلة عديدة في المجتمع دفعت للتعلم أن يتوسع بشكل قد يكون تجاوز حدود البرامج البريطانية. وبما أن التعليم في ذلك الحين كان نخبويا فقد، احتلت هذه النخبة المراكز التربوية والتعليمية في فلسطين، وهذا مكن التعليم من حيازة نخبة طلبة فلسطين على ضوء الدخل المقبول الذي كان يحقق لمن يقومون بذلك بجانب المكانة المجتمعية العليا «أفضل الناس» للمعلم خاصة أنه متعلم بشكل مناسب.

كان المعلم حينها ذا مكانة مجتمعية مرموقة ودخل اقتصادي يوفر لصاحبة حياة كريمة، ولكن قد يعود تراجع مكانة المعلم كما يذكر الأستاذ جبر لعدة أسباب منها، توجه النخب المتعلمة لمهن أكثر رفعة كالطبيب والمهندس، وهذا ناتج عن التوسع في عدد المتعلمين بجانب عدم حماية مهنة التعليم من قبل من يديرونها على مر السنوا كلها المعاصرة من قبل الأستاذ جبر. ويمكن القول إن ظاهرة الدروس الخاصة التي يشار إلى أنها قد بدأ في الظهور في فلسطين في مطلع الستينيات، وهي ليست كما هي عليه اليوم بل كان البعض من المعلمين يذهبون لبيو الطلبة، وهذا طبعا دافعه عدم الكفاية مما يتلقون في مدارسهم.

فالعرب في فلسطين اهتموا بتعليم أنفسهم وأبنائهم وإن تكفلوا بذلك على حسابهم المباشر، إن كان ذلك بالتكفل بالمباني المدرسية أو رواتب المعلمين خاصة في القرى

■ ■ ■

كان المعلم حينها ذا مكانة مجتمعية مرموقة ودخل اقتصادي يوفر لصاحبة حياة كريمة

لقد أشار ضيفنا في هذا العدد إلى ان التعليم في زمن الانتداب كان افضل مما عليه الآن، كونه في ذلك الحين كان تعليما نخبويا ومن يقوم به هم النخب، وليسوا من هم غير متميزين في درجاتهم التعليمية كما يحدث اليوم، فكليا التخصصات التجارية والتقنية والهندسية اليوم لها متطلباتها التعليمية التي تتفوق على كليا الآداب والتربية في الجامعات، هذا بخلاف أن التعليم استهدف لسنوا طويلة من الاحتلال الذي كان يمنع خريجي الجامعا الوطنية الفلسطينية من إشغال مناصب التعليم حينها، وركز على عدد محدود منهم في المراحل الثانوية، وبقي المستوى الأساسي محددا لخريجي المعاهد والكليات المتوسطة.[٢]

عماد غياظة
محاضر في جامعة بير زيت - وباحث في المركز

(١) هشام فوزي عبد العزيز. دار المعلمين والكلية العربية في القدس ١٩١٩-١٩٤٨: دراسة في المصادر الأولية.في إبراهيم أبو لغد، حماد حسين. التعليم الفلسطيني تاريخا، واقعا وضرورا المستقبل.جامعة بير زيت: ١٩٩٧. ص ٣١٠.

(٢) تمت المقابلة في جنين بتاريخ ٢٠٠٠/١/٢٩